البَابُ التَّاسِعُ

الأغراض الاجتماعية
التحذير، الشكوى، الاعتذار، التهنئة، التعزية، التأبين

١-تمهيد

في الباب الثاني عشر من كتابنا (النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة) كنا قد درسنا ثلاثة أغراض اجتماعيةَ الأفكار، إنسانية النوازع، نبيلةَ المقاصد، وهي: العتابُ، والتعزية، والتأبين. بدأنا الدراسة بتفسير هذه الألفاظ لغةً، وتعريفها اصطلاحاً، وغُصْنا بعد ذلك على البذور والجذور الجاهلية التي نبتت منها.

ثم درسنا تطوُّرها في عصر النبوة والخلافة الراشدة، فذكرنا أن الإسلام بثَّ في هذه الأغراض روحاً جديدة، لم تخالطها من قبل، جوهرُها التآزرُ والتناصر، والتراحمُ والتواؤم، والتكافل الاجتماعي، والتكامل الأسري، وغسل النفوس من أوضار الإحن، وتنقيتُها من أوشاب العصبية القبلية، وجمعُها على البرِّ والتقوى في إطار العقيدة الدينية، و الأخوة الإنسانية.

وفي العصر الأموي أخذت هذه الأغراضُ تتطوَّر مع تطوُّر المجتمع العربي، وانتقاله من البداوة إلى الحضارة، وانضمَّتْ إليها أغراض أخرى، قد تُفارقها في الأفكار الخاصَّة بعضَ المفارقة، لكنها توافقُها في الروح العامَّة كلَّ

المُوافقة، وأبرزُ هذه الأغراض: التحذيرُ، والشكوى، والاعتذارُ، والتهنئة، والتعزيةُ، والتأبينُ.

بانضمام الجديد إلى التليد اتسعت دائرة الأدب الاجتماعي، وغدا النثر يجاري الشعر في ميادينه، فيلحقُه حيناً ويسبقه حيناً آخر، لكن النقاد ظلوا يقدّمون المنظوم على المنثور ويؤثرونه بالرواية والعناية، إمَّا لأنه أَوْقَعُ وأمتَعُ. وإمَّا لأنه أعلقُ بالذاكرة. ومع أن القسمَ الأعظم من هذه الأغراض اجتماعيٌّ خالص، فإن في طائفة من نصوصه ملامحَ سياسيَّةً وعسكريةً لأن بين هذه النصوص فقراتٍ صَنَعَها قادةٌ وساسة، مؤيِّدون ومعارضون، يزِرون ويعتذِرون، ويحذِّرون وينذرون فلا يخلو اعتذارهم وإنذارهم أحياناً من مخايل السياسة.

٢- الأغراض الاجتماعية

أ-التحذير

في فترات الاضطراب والفتن تصطرعُ الآراءُ والأهواء، وتتقلَّب المواقف، ويتردَّدُ صغارُ الساسة بين كبارهم، فيؤيِّدون ويعارضون، ثم يميلون مع رياح المصالح حيث تميل. ولعلَّ أخصَّ ما يخصُّ هؤلاء الصغار الذكاءُ في الانتهاز، والمكرُ في التربُّص، فهم يترجَّحون ثم يرجحون، أو ينتظرون مَنْ يتودّدون إليهم من الكبار ليبيعوهم سيوفهم وألسنتهم.

كان زياد ابن أبيه[ت: ٥٣هـ] في بداية عهده بالسياسة كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم لأبي موسى الأشعري أيامَ إمرته على البصرة. ثم تولَّى إمرة فارس لعلي كرَّم الله وجهه. وبعد مقتل عليّ اعتصم زيادٌ بقلاع فارس، ولعلَّه لم يعتصمْ إلَّا متربِّصاً، يترقَّبُ ما تنكشفُ عنه الأحداث، قال الزركلي: «تبين لمعاوية أنه- يعني زياد ابن أبيه- أخوه من أبيه أبي سفيان، فكتب إليه بذلك، فقدمَ زيادٌ عليه، وألحقه معاويةُ بنسبه سنة ٤٤هـ، فكان عَضُدَه الأقوى، وولَّاه البصرةَ والكوفة وسائر العراق».

إن أخشى ما يخشاه المتقلِّبون- ومنهم زياد- ماضيهم الذي يلاحقُهم، وهم يهربون منه. وقبل أن يلاحق زياداً ماضيه استدعى حُجْرَ بنَ عديّ الكِنديّ [قتل: ٥١هـ] - وكان من جند علي في الجمل وصفين - وحذره وأنذره. ولم

يجبره على أن يبايع معاوية، وخوَّفه أن يشايع أهل البيت، وزعم أن الله نزع من قلبه حب علي، وزرع في قلبه حبَّ معاوية، وأنه لن ينال حجراً بظفر جارح ما لزم الصمت، وآثر العافية، وأنه سيثيبه إن سالم ويعاقبه إن قاوم. فقال[١]:

«قد بلغني ما كنت تفعله بالمغيرة، فيحتمله منك. وإني والله لا أحتملك على مثل ذلك أبداً. أرأيت ما كنت تعرفني به من حب علي ووده؟ فإن الله قد سلخه من صدري، فصيَّره بغضاً وعداوة، وما كنت تعرفني به من بغض معاوية وعداوته، فإن الله قد سلخه من صدري، وحوله حبّاً ومودة. وإني أخوك الذي تعهد. إذا أتيتني، وأنا جالس للناس، فاجلس حتى أخرج إليك، ولك عندي في كل يوم حاجتان: حاجة غدوة، وحاجة عشية. إنك إن تستقم تسلم لك دنياك ودينك. وإن تأخذْ يميناً وشمالاً تهلكْ نفسك، وتشط عندي دمك. إني لا أحبُّ التنكيل قبل التقدمة. ولا آخذ بغير حجة. اللهم اشهد».

يبدو أن حُجراً - وكان يُلَقَّب حجر الخير- لم يصغ إلى التحذير، ولم يسمح لحبّ معاوية أن يسلخ من قلبه حب علي بل أقام على عهده القديم في الإخلاص للهاشميين، فاعتقله زياد، وأرسله إلى معاوية، فدفعه معاوية إلى هدبة بن فياض ليقتله. روى ابن جرير خبر مقتله مفصَّلاً، وختم الخبر بقوله[٢]: «..ثم مشى إليه هدبة بن فياض بالسيف، فارتعد. فقالوا له: زعمت أنك لا تجزعُ من الموت، فابرَأْ من صاحبك، ونَدَعُك. فقال: ومالي لا أجزعُ، وأرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً؟ وإني والله إن جزعتُ من القتل لا أقول ما يُسْخِط الربَّ. فقتلوه».

ب- الشكوى

إذا كان التحذيرُ إنذارَ القويِّ للضعيف ليقلعَ عمَّا يقترف أو يُبَيِّت، فإن الشكوى تَظَلُّمُ الضعيف من القويّ إلى الأقوى لينصفه منه. ولمَّا كان حكم الأقاليم النائية عن حاضرة الدولة متروكاً للولاة وعمَّالهم وشُرَطهم، فإنهم، مهما يلتزموا الكتابَ والسنة، ومهما يحكموا بما أنزل الله، فَهُمْ يتفاوتون في الطباع، وطرائق الإدارة، والنظر إلى الرعية، وينجمُ عن تفاوتهم في كثير من

(١) الأغاني ١٧/ ١٣٤، تشط: تُذهب وتسفك دمك.
(٢) تاريخ الطبري ٦/ ١٥٤.

الأحيان هَضْمٌ للحقوق، أو اقترافٌ للمظالم، أو إهمالٌ للرعية. وهذه المساوئ تنطق المظلوم بالشكوى، وتحمله على أن يشكو الشرطي أو العامل إلى الوالي أو الخليفة، لعلّه يُشكيه، ويُعينُه على ما يُعانيه.

لقد عُرِفَ العرب عامَّةً، والأعرابُ خاصَّةً بالجراءة في القول، والثورةِ على الظلم، ورفض الخضوع للوُلاة العتاة، وهذا الطبعُ الأبيُّ كان يحملهم على النطق بالحق، أو بما يعتقدون أنه حقٌّ، ولو كانت مصارعُهم فيما ينطقون، على النحو الذي تجلّى قبلُ في مصرع حُجْر بن عدي. فليس من المستغرب إذن أن يدفعهم الظلم إلى التذمُّر، والتذمرُ إلى الجأر بالشكوى، ولَّى هشامُ بن عبد الملك خاله إبراهيم بن هشام على الحجاز واليمن، فحمَّل عبدَ الله بنَ عروة بنِ الزبير ما لا يُطيق. ففزع عبد الله إلى الخليفة، ورفعَ إليه شكواه من مطامع واليه، لعلَّه يُشكيه، ويدفع عنه ما يُقاسيه، فقال[1]:

«يا أمير المؤمنين، إنك قد ولَّيتَ خالَك ما بين المدينة إلى عدن، فلم يمنعه كثيرُ ما في يديه من قليل ما في أيدينا أن نازعته نفسُه اختلاسَ ما في اختلاسه هُلْكُنا. فأنشدك الله، يا أمير المؤمنين، أن تصل رحماً بقطيعة أخرى. فوالله ما سخا بأنفسنا عن الأموات إلا ما كفَّ وجوهَ الأحياء. ولأن نموتَ مرفوعين أحَبُّ إلينا من أن نعيشَ مخفوضين».

وقد تكون الشكاةُ المرفوعة إلى الأمير استعانةً على بلاء، لا تظلُّماً من عامل. وجزيرة العرب يعرض لأرضها من الجدب، ولأهلها من الجوع ما لا يعرض للأقاليم الأخرى، ومَنْ أجْدبَ انتجع. والبصرةُ أقربُ المواطن التي ينتجعها أهل اليمامة إذا أجدبوا.

يبدو أن اليمامة قُحِطت في عهد عبد الملك، فألجأ القحطُ أعرابيةً فصيحة إلى قاضيها ووالِيها عبيد الله بن أبي بكرة، فقصدته ومعها أبناؤها وحفداؤها يتضاغَوْن ويتباكوْن من الجوع، وسألته مكرمةً من ثلاث، فأعطاها كلَّ ما سألت: إعادتَها إلى موطنها، وكشفَ الضرِّ عنها وعن قومها، ورفدَها بما يكفيها

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٣/ ٣٨، «أن تصل» على تقدير (لا) قبل تصل «ألّا تصل»، سخا بنفسه عن: تركه وكأنما قال: وما أبعدنا عن الأموات وأبقانا أحياء، مرفوعين: أعزة، مخفوضين: أذلاء.

وعيالَها، قال ابن عساكر[١]: دخلت أعرابيةٌ على عبيد الله بن أبي بكرة في البصرة، فقالت:

«أصلح الله الأمير، وأمتع به، حَدَرتْنا إليك سنةٌ اشتدَّ بلاؤها، وانكشف غِطاؤُها. أقودُ صِبية صغاراً، وأُجري كباراً، تخفضُنا خافضةٌ، وترفعنا رافعة، لملمَّاتٍ من الدهر، بَرَيْنَ عظمي، وأَذهبْن لحمي، وتركنني والهاً، ألوذُ بالحضيض، قد ضاق بي البلد العريض. فسألتُ أحياء العرب: مَن المُرْتَجى غيثُه، والمُعْطى سائلُه، والمكفيُّ نائلُه؟ فَدُلِلْتُ عليك، أصلحك الله. وأنا امرأةٌ من هوازن؛ قد مات الوالدُ، وغاب الوافد[٢]، وأنت بعد الله غياثي، ومنتهى أملي. فافعل بي إحدى ثلاث خصال: إمَّا أن تردَّني إلى بلدي. أو تحسن لي حفدي أو تقيمَ لي أوَدي. فقال: بل أجمعُهن لك، وحُباً».

وأجْوَدُ ما يُستجاد من الشكاوى انطواؤها على مشاعر إنسانية، تفيضُ منها الرأفة، وتُفضي إلى التكافل. وربَّما شابها من جراءة الشاكي إلى المشكوِّ إليه ما يجعلُ الصراحة وقاحة، فيتغمَّد المشكوُّ إليه الوقاحة بالسماحة، ويلتمسُ لصاحبها العذر، فتنقلبُ الحالةُ من غضب متذمِّر إلى عطف نبيل.

ذكر ابن عساكر أن عبدَ الملك ولَّى على صدقات كلب رجلاً من بني أمية أشقرَ أحمرَ، فاشتدَّ، وشقَّ على القوم. فدخل على عبد الملك أعرابيٌّ جلفٌ من جُفاة كلب، وشكا العاملَ شكاةً، تتفجَّر غضباً وعجرفة، وراح يصفعُ عبد الملك على مشهد من الناس ومسمع بألفاظ كأنها حجارة من سجّيل، وعبدُ الملك يُصْغي غيرَ متضجِّر. وألطفُ ما في هذه الشكوى الغضوب قولُ الأعرابي، وهو يخاطب الخليفة[٣]:

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٨/١٦.

(٢) كذا وردت، والوافد: القادم إلى الملك أو الأمير، وربما كانت تصحيفاً للرافد: بمعنى المعطي والمعين، انكشف غطاؤها: ذهب نبتها، حدرتنا: هبطت بنا.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٩/٢٥٨، قد أسقطنا بعض ما فيها من قبيح الكلام، مربوب: مملوك لله، المدرة: المدينة الضخمة، عصباً: شديداً صلباً، القرعوس: الجمل له سنامان، طمطماني: أعجمي، أطوم: لا يفهم ولا يُفهم، بسر: عبس، زبر: انتهر وزجر، اكبأن: دخل بعضه في بعض، أقطاره: نواحيه، أجاءك: اضطرك. المناقط: المتفرقة. المشايط: السِّمان، العمارط: المختلسين.

«يا إنسانُ، إنك مُدْبرٌ مربوب. قال: أَجَلْ، فما تشاء؟ قال: احتجبت بَهذه المَدَرة، وولَّيْت خطابنا أصهبَ عَصْباً كالقِرْعَوس، طُمْطمانياً أطُوماً.... إن كشرتَ بَسَر، وإن خاطَبْتَ نَهَر، وإن بالغتَ زَبَر، فلا الكلامُ مدفوعٌ، ولا القولُ مسموع، ولا الحقُّ متبوع، ولا الجَوْرُ مردوع. ولنا ولك مقام فيه يُنَصُّ الخصام، وتزحف الأقدام، وينتصفُ المظلوم، وينعشُ المهضوم، ها إنَّ ملكَكَ هناك زائلٌ، وعزّك حائل، وناصرك خاذل، والحاكم عليك عادل. فَاكْبَأَنَّ عبد الملك، وتضاءلتْ أقطارُه، وترادفتْ عَبَراتُه في صدره، ثم قال: لله أبوك! أيُّ ظلم نالك منا حتى أجاءَك إلى هذا المقال؟ قال: ساعيك في السماوة، نهارُه لهوٌ، ورأيه لغو، وغضبه سطو، يجمع المناقطَ، ويحتجن المشايطَ، ويستنجدُ العَمَارطَ. فأمر عبد الملك بصرف العامل».

ولا يخطئُ من يستنبط من النصوص السابقة أنَّ شكوى المحكوم وإشكاءَ الحاكم أنجبا ضرباً من الأدب الاجتماعي القيّم المشوب بالسياسة، وأنَّ هذا الأدبَ استطاع أن يطويَ المسافة الشاسعة التي كانت تفصلُ الخلفاء والأمراء عن طبقات الشعب، وأن يَسِمَ الحكم الأموي بسمات شعبية، قرَّبت الرعاة من الرعية، وغَسَلت النفوسَ من أوضار البغضاء، وأصلحتْ ما أفسد يزيدُ بن معاوية بسياسته الخرقاء، ومَسْلكه الأرعن.

جـ- الاعتذار

الاعتذار لونٌ من الأدب الاجتماعي في العصر الأموي، خالطته مشكلاتُ السياسة، وفرضته تكاليفُ الحياة، واتّساع الروابط، والتحضُّر الآخذ بالتعقُّد، كانت له في الجاهلية بذورٌ وجذورٌ، غير أنه في العصر الأموي اتَّسع وازدهر. وازدهارُه مرهون باضطراب الأحوال والأحداث، وتقلُّب التعصُّب والتحزُّب، وتبدُّل المصالح والمطامح، واصطراع الآراء والأهواء، كالمناصرة بعد المنافرة، والخروج على مَنْ يُتَوَهَّمُ فيهم الضعفُ، ثم العودةُ إليهم بعدما تكون لهم الغلبة.

والعصر الأمويّ كان حافلاً بهذه العوامل كلِّها، وبأكثر منها، ولهذا ارتقى فنُّ الاعتذار أيَّ ارتقاء، فأزجاه الضعفاء إلى الأقوياء، والمحكومون إلى الحكام، والنادمون على ما اجترحوا بعد أن تبيَّن لهم وجهُ الحق، والمذنبون

حينما آثروا التوبة، والمسالمةَ على التحدِّي، والوفاقَ على الشقاق. فساقوا ما اعتذروا به إلى من يتوسَّمون فيهم سعةَ الصدر منظوماً مرة، ومنثوراً أخرى.

وما وقفنا عليه من منثور الاعتذار في العصر الأموي على ضربين: اجتماعيٍّ خالص، واجتماعيٍّ مخضوب بخضاب السياسة. أمَّا الأولُ فأكثرهُ ممَّا كان يتقارضُهُ أعلامُ الناس وأغفالهم، ولا يُدْلون به إلى الحكام. وفي هذا الضرب، تُرْسل المعاني على السجيَّة، وتُصاغ بلا صنعة، وتهدأ العواطف، وتشفُّ عن صدق بلا ارتباك، إذْ لا يخالطها فزع ولا طمع، لتساوي المعتذِر والمعتذَر له في المنزلة، وتجرُّدهما من السُّلطة التي تُعْلي الملكَ على السوقة.

عَتَب الحارثُ بن خالد المخزوميّ على الغريض- وكان أشهرَ المغنين في مكة- لأنه لم يغنِّ بشعره، فاعتذر المغني للشاعر بقوله[1]:

«كانت هفوةً من هَفَوات النفس، وخطرة من خَطَرات الشيطان، ومثلك وهَبَ الذنب، وصَفَح عن الجُرم، وأقال العَثرة، وغفر الزلَّة، ولستُ بعائدٍ إلى ذلك أبداً».

وكان طلحةُ بن عبد الله الخُزاعي المعروف بطلحة الطلحات أَجْوَدَ أهل البصرة، فأغضب جودُه امرأته، فعاتَبتْه، واتهمت قومه بالطمع واللؤم، لأنهم يقصدونه إذا أخصب، ويُعْرضون عنه إذا أجدب، فردَّ العتاب باعتذار. قال ابن عساكر[2]:

«قالت امرأة طلحة له: ما رأيتُ ألأمَ من قومك. قال: وكيف؟ قالت: يأتونك إذا أيسرْتَ، ويقطعونك إذا أملَقْتَ. قال: فهؤلاء أكرمُ قوم حين يأتوننا حيثُ بنا قوةٌ على برِّهم، والقيام بحقوقهم. وينقطعون عنا حين نضعفُ عن ذلك».

وصعدَ المنبرَ خالدُ بنُ عبد الله القسري، وكان من البلغاء، والخطباء المعروفين باللَّسَن، فعقلتْ لسانَه الهيبةُ، وأُرتج عليه، فاعتذر، واعتذارُه يعني أن هذا الضرب من الاعتذار لا يقتصر على السوقة، بل يشترك فيه الرعاة والرعية. قال القسري[3]:

---

(١) الأغاني ٣/ ٣٢٥.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١١/ ١٨٦.

(٣) أمالي القالي١/ ١١١، يعزب: يبعد، يعز: يصعب. كوبر: ربما أراد بها غولب، لمجيه: للمواتي منه.

«أيُّها الناس، إن الكلامَ ليجيءُ أحياناً، فيتسبَّب سببُه، ويعزبُ أحياناً، فيعزُّ طلبُه. فربَّما طُولبَ فَأَبى، وكُوبر فعصى، فالتأتّي لمجيِّه أَصْوَبُ من التعاطي لأبيِّه».

وليس من المستغرب أن يصيب سَراةُ القوم وحكامهم حظاً من الاعتذار الاجتماعي المجرَّد من السياسة، لأن انتماءهم إلى البشر سبقَ انتماءهم إلى السُّلطة. فهم بشر يأثمون ويندمون، ويَزِرُون ويعتذرون، واعتذارهم ينضو عنهم مظهرَ السلطان العارض، ويردُّهم إلى جوهر الإنسان الثابت. عاتب عبد العزيز بن مروان أخاه بشراً لكلام أحفظه عليه، فلما بلغ بشراً سخطُ أخيه، اعتذر فقال[1]:

«لولا الهفوةُ لم أحتَجْ إلى العذر، ولم يكن لك في قبوله مني الفضلُ. ولو احتمل الكتابُ أكثر ممّا ضمَّنتهُ لزدتُ فيه، وبقيَّةُ الأكابر على الأصاغر من شِيَم الأكارم. ولقد أحسن مسكينٌ الدارميُّ حين قال:

أخاك أخاك، إن مَنْ لا أخا له كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح»

وفي اعتذار الشريف للشريف، والأمير للأمير يخالط الإقرارُ بالخطأ الثقةَ بالنفس، ويمتزجُ الإباء بالتواضع، فينجم عن هذه العواطف المتناقضة في الظاهر، المتكاملة في الحقيقة أدبٌ قيمٌ متوازن الأفكار والمشاعر، بريءٌ من الخوف المؤرِّق، والندم المتزلِّف، والتوبةِ المتنصِّلة من الإثم. كان عبدُ الله بن عامر بن كريز - والقولُ للزركلي -: «شُجاعاً سخيّاً وصولاً لقومه رحيماً». نوَّه به الإمامُ علي فقال: «ابنُ عامر سيِّدُ فتيان قريش». وهذه السيادة جعلته جديراً بأن يتزوَّج ابنة الخليفة معاوية بن أبي سفيان. لكنه بعد أن بنى بها وجَدَها صغيرةً غريرة، وهو كهلٌ مكتملُ العقل، فطلَّقها، وأسخط الطلاقُ معاوية، فعاتبه، فاعتذر له ابنُ عامر اعتذاراً، فيه من الثقة بالنفس والاعتزاز بالشرف مثلُ ما فيه من التواضع والاعتراف بالخطأ. وربَّما كان فيه من الافتخار فوق ما فيه من الاعتذار، إذ قال[2]:

«إن الله منَّ عليَّ بفضله، وخلقني كريماً، لا أُحبُّ أن يتفضَّل عليَّ أحد. وإن ابنتَك أعجزتني مكافأتُها، لحسن صحبتها، فنظرتُ، فإذا أنا شيخٌ، وهي

(١) الأغاني ٢٠/ ٢١٠، الهفوة: الزلة.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٧/ ١٩٤، ورقة مصحف: أي أزهر مشرق.

شابَّةٌ، لا أزيدُها مالاً إلى مالها، ولا شرفاً إلى شرفها. فرأيتُ أن أردّها إليك لتزوِّجها فتىً من فتيانِك، كأنَّ وجهه ورقة مصحف».

والضرب الثاني من الاعتذار ما اختلط فيه الاعتذارُ بالإقرار والاستغفار، أي ما أقرَّ فيه المعتذِرُ بأنه أخطأَ وندم، وأن ندمه حمله على التوبة. ونصوص هذا الضرب كلُّها أو جلُّها مشوبةٌ بأوشاب السياسة، أو مخضبةٌ بدماء الفتن، أو موصولة النسب بالعصبية القبلية. والقسم الأعظم منها يُدْلي به الضعيفُ للقوي، والمحكومُ للحاكم، لكنَّ بينها نصوصاً نادرةً، يعتذرُ فيها الآمر للمأمور، والخليفةُ للجند، على سبيل التشجيع والتألُّف، لا على سبيل التذلُّل والتزلُّف.

كان معاويةُ يُغْزي اليمنَ في البحر، ويُغْزي قيساً في البرِّ، فساء اليمنَ ذلك، وبلغ معاويةَ استياؤُهم، فاعتذر لهم بقوله[1]:

«ما أغزيتكم البحرَ إلَّا لأني أتيمَّن بكم، وأن في قيس نكداً وأخلاقاً لا يحتملُها الثغر. وأنا عارف بطاعتكم ونصحكم. فأما إذْ قد ظننتم غيرَ ذلك فأنا أجمعُ فيه بينكم وبين قيس، فتكونون جميعاً فيه، وأجعلُ الغزو فيه عُقبى بينكم».

ولَمَّا كان هذا الشكلُ من الاعتذار نادراً، والنادرُ لا يُقاسُ عليه، فإننا نعودُ إلى ما بدأنا به، وهو أنَّ الشكل الأشيعَ للاعتذار المشوبِ بالسياسة هو الشكلُ الذي رسم النابغةُ الذبياني خطوطه الأولى فيما اعتذر به للنعمان بن المنذر، وكلُّ ما قيل بعده من منظوم ومنثور عيالٌ عليه، قد يُدانيه في الأفكار، ولكنْ يتخلَّف عنه في المشاعر.

تمرَّد أيوب بن القرِّيَّة مع ابن الأشعث على الحجَّاج بن يوسف، فلَمَّا أخفق التمرُّد، وأُسقِط في يد ابن القرية هُرع إلى الاعتذار، فزعم أنه تابعَ المتمردَ مُكْرَهاً، واعتذر للأمير صادقاً، وأن حب الحجاج -والله أعلمُ بالسرائر- مغروسٌ في قلبه، ولا تستطيعُ رياحُ الفتن أن تقتلعه، فقال[2]:

«أصلحَ الله الأميرَ، إني قد أتيتُ إنساناً في مَسْك شيطان يتهدَّدُني بتخوُّنه، ويقهرُني بسلطانه. فنطقَ اللسانُ بغير ما في القلب. والنصيحة لك ثابتةٌ، والمودَّة لك باقية».

---

(١) الأغاني ٢٠/ ٢٠٩ عقبى: بالتناوب.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ١٣٣.

ومَنْ كان له دهاءُ الحجاج لا يُخدع بمن كان له بيانُ أيوب الذي كان مضربَ المثل في الخطابة والفصاحة، ولا يتقبَّل فيه شفاعة، ولا منه اعتذاراً، ولهذا سخر من تقلُّبه، وأَمَر به، فضُرِبتْ عنقُه.

والشعراء - ومنهم الكميتُ بنُ زيد- أشدُّ تقلُّباً من الخطباء، وتقلُّبهم بين الأحزاب والقادة يَقفُهم مواقفَ مُخْزية، تحملهم على أن يتنصَّلوا ممَّا قالوا. لقد كان الكميتُ شاعرَ الشيعة الأكبر في زمانه، مدحَ الهاشميين، ورثى زيدَ بن علي وابنه، وحرَّض الناسَ على بني أمية، وهو في ذلك كلّه صادقٌ. لكنه لَمَّا تناهى إليه أن هشامَ بن عبد الملك ساخطٌ عليه، راح يعتذرُ له، وهو في اعتذاره له، لا في مدح الطالبيين، كاذبٌ. قال الكميت[١]:

«يا أميرَ المؤمنين، غائبٌ آبَ، ومذنبٌ تابَ، محا بالإنابة ذنبَه، وبالصدق كذبه. والتوبةُ تُذهب الحَوْبة. ومثلُك حَلُم عن ذي الجريمة، وصفحَ عن ذي الريبة».

وإذا خطر لك أن تعلِّلَ اعتذار الكميت بالتقيَّة، فإن هذه العلَّةَ لا تنفي عنه الذلَّة، ولا تبرئه من التقلُّب والملق وقلب الحقائق، وتحريك اللسان بغير ما يؤمن به القلب، وخيرٌ منه بُجَيْرُ بن عبد الله المسليّ فيما اعتذر به لمصعب بن الزبير. كان بجير قد ظاهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على الزبيريين، وحاربهم معه. فلما انتصر الزبيريون وجيء ببجير أسيراً إلى مصعب لم ينكر معاداته من قبل، ولم يدَّعِ موالاته فيما بعد؛ وإنَّما حلَّل الأحوال السياسية تحليلاً موضوعياً صادقاً، خلاصتُه أن الإنسان في أيام الفتن يحدّد موقفه على ضوء الأحداث، فيخطئُ أو يصيب. ثم تقرِّر الأحداثُ الصواب أو الخطأ حينما ينتصر فريق على فريق. وانتصارُ مصعب قرَّر خطأَ بجير. فإن عفا المنتصر عن المنهزم كان ذا فضل، وإن عاقب كان على حق، وفي العفو أجرٌ، والأجرُ خيرٌ من الثأر. قال بجير[٢]:

«الحمد لله الذي ابتلانا بالإسار، وابتلاك بأن تعفوَ عنَّا، وهما منزلتان إحداهما رِضى الله، والأخرى سخطهُ. مَنْ عفا عفا الله عنه، وزاده عِزاً، ومنْ عاقب لم يأمن القصاص.

(١) الأغاني ١٧/ ٢١، الحوبة: ما يتحرّج منه أو الذنب.
(٢) تاريخ الطبري٧/ ١٥٦، أسجحوا: أحسنوا.

يا بن الزبير، نحن أهل قبلتكم وعلى ملَّتكم، ولسنا تُرْكاً ولا دَيْلماً. فإن خالفنا إخواننا من أهل مِصرنا فإمَّا أن نكون أصبنا وأخطؤوا،وإمَّا أن نكون أخطأنا وأصابوا، فاقتتلْنا كما اقتتل أهلُ الشام بينهم، فقد اختلفوا واقتتلوا، ثم اجتمعوا، وكما اقتتل أهلُ البصرة بينهم. فقد اختلفوا واقتتلوا، ثم اصطلحوا واجتمعوا. وقد ملكتم فأَسْجِحُوا، وقد قدرتم فاعفوا».

وزبدةُ الرأي في الاعتذار أنه غرضٌ من أغراض الأدب الاجتماعي، ينجمُ عن الرغبة في العودة إلى المسالمة بعد المخاصمة، والموالاة بعد المعاداة، ويهدف إلى تنقية النفوس من أوضار الإحن المتخلفة عن الفتن، وغسل القلوب من التلاوم، وإعدادها للتواؤم. وهو، على اختلاف دواعيه ومعانيه ومراميه، اجتماعيُّ الطابع، إنسانيُّ المشاعر، سواءٌ أشابَهُ شَوْبٌ من السياسة أم خَلَصَ منها.

د- التهنئة

التهنئةُ أدبٌ إسلاميٌّ رفيع، وتوجيهٌ نبويٌّ نبيل، فهي تنفح الحياة بأرج البهجة، وتبثُّ في الروابط الاجتماعية روحَ المودة، فتقوى بها أواصر القرابة، وتتوثق وشائجُ الصحبة، وتسمو علاقاتُ المجاورة، وتُسْتَلُّ الضغائنُ، وتزرع المرحمة، كأن فيها طيفاً من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٢٤] قال ابن منظور: «التهنئةُ خلافُ التعزية. يقال: هَنَأَه بالأمر والولاية هَنْأً، وهَنَّأَه تهنئة وتهنيئاً إذا قلت له: ليَهْنِئْكَ» وفي الحديث النبويّ نصوصٌ وأخبارٌ علَّمتنا كيف نُزجي التهنئة بلفظها أو بلفظ التبريك، أو بألفاظ الدعاء الأخرى؛ قال النووي: «عن أنسٍ، بنى رسول الله ﷺ بزينبَ رضي الله عنها. أَوْلَمَ بخبزٍ ولحم- وذكَرَ الحديث في صفة الوليمة وكثرة من دُعيَ إليها- ثم قال[1]: فخَرَج رسولُ الله ﷺ، فانطلقَ إلى حجرة عائشةَ. فقال: السلامُ عليكم أهلَ البيت ورحمةُ الله وبركاته. فقالت: وعليك السلامُ ورحمة الله. كيف وجدْتَ أهلك؟ بارك الله لك....».

ومنها حديث كعب بن مالك[2] المخرج في الصحيحين في قصة توبته. قال:

---

(١) الأذكار/ ٣٩٣.

(٢) المصدر السابق/ ٤٥٨.

«سمعتُ صوت صارخ يقول بأعلى صوته: ياكعبَ بنَ مالك، أبْشر. فذهب الناس يبشّروننا. وانطلقتُ أتأمَّم رسولَ الله ﷺ، يتلقَّاني الناسُ فوجاً يهنِّئونني بالتَّوْبة، ويقولون: ليهنيك توبةُ الله تعالى عليك». «وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت[١]: كان رسولُ الله ﷺ في غزو، فلمَّا دخل استقبلتُه فأخذتُ بيده، فقلت: الحمدُ لله الذي نصرك وأعزَّك وأكرمَكَ».

وفي العصر الأموي تطوَّرت الحياةُ، ونقلها التطوُّر من البداوة إلى الحضارة، فاستقرَّ كثير من البدو في المدن، وتعايشوا في أحياء متجاورة، وهيأ لهم التجاورُ والتعايشُ أن يتبادلوا التهنئة، فسلكوا في تبادلها ما أُثر عن عصر النبوة والخلافة الراشدة، إذْ صاغوها بألفاظ مترادفة، يُغْبَطُ بها المحبورُ، ويُزف التبريك إلى المسرور، ويدعى بالرفاء والبنين للباني بأهله، وبالسعادة للمولود، وبالبرِّ للوالد. ومَنْ كان يجهلُ كيف يهنِّئُ كان يتعلَّم التهنئةَ من أهل البيت، لأنهم ورثةُ السُّنة. «عن الحسين رضي الله عنه أنه علَّم إنساناً التهنئة، فقال له: قُلْ: بارك الله لك الموهوب لك، وشكرت الواهبَ، وبلغَ أشدَّه، ورُزقْتَ بِرَّه»[٢]. وحينما خطب الحجَّاجُ هنداً بنت أسماء هنَّأه ابن القِرِّيَّة، فقال[٣]:

«أقرَّ الله عينَك، وجمعَ شملك بالسُّرور والغنى على أسعد السعود، وأَيْمَنِ الجدود، وأَبْرَك العُقود. جعلَها الله تعالى وَلوداً ودوداً، وجمع بينكما على البركة والخير».

ولمَّا كانت نصوصُ التهنئة المتحدِّرة إلينا من العصر الأموي مقتبسةً من السنة النبوية فمعانيها وألفاظُها لم تتغيَّر إلَّا بعضَ التغيُّر، وأسلوبُها ظل محافظاً على الإيجاز والدعاء.

هنَّأَ رجل الحسنَ بن علي رضي الله عنهما بغلام وُلِدَ له، فقال[٤]: «بارك الله لك في هبتِه، وزادَك من أحسن نعمتِه».

وربَّما كانت نصوصُ التهنئات التي خالطتها السياسةُ أحفلَ من غيرها بسماتِ التطوُّر، لأن المهنِّئين حَرَصوا على التنميق لإرضاء الأمراء والخلفاء،

(١) الأذكار/ ٣١٦.
(٢) المصدر السابق/ ٤٠١.
(٣) البصائر والذخائر ٩/ ١٦٢، السعد: اليمن، الجد: الحظ، اليمن: البركة.
(٤) عيون الأخبار٣/ ٩٣.

فطابقوا وسجعوا. هنَّأ بعض المتملِّقين الوليد بن يزيد، حينما ولَّى العهد ولديه الحَكَم وعثمانَ، فقال[١]:

«أراك اللهُ- يا أمير المؤمنين- في بنيك ما أرى أباك فيك، وأَرى بنيك فيك ما أراك في أبيك».

وهنَّأَ طريح بن إسماعيل الثقفي مروانَ بن محمد بالخلافة، فقال: «الحمدُ لله الذي أنعمَ بك على الإسلام إماماً، وجعلَكَ لأحكام دينه قواماً، ولأمّة محمدٍ المصطفى جُنَّةً ونِظاماً»[٢].

وشفعَ بعضُ المهنّئين منثورَه بمنظوم غيره، ليجمِّلَ الحسنَ بأحسنَ منه. وفَدَ بلالُ بن أبي بردة على عمرَ بن عبد العزيز حينما آلت الخلافة إليه، فهنَّأه بما نَثَر هو، وما نظم مالكُ بن أسماء فقال[٣]:

«مَنْ كانت الخلافةُ- يا أمير المؤمنين - شرَّفته، فقد شرَّفْتها. ومَنْ كانت زانتْه، فقد زِنْتَها. وأنت - والله - كما قال مالك بن أسماء:

وتزيدينَ طَيِّبَ الطِّيبِ طِيباً إنْ تَمَسِّيه، أينَ مثلُكِ أَيْنا
وإذا الدرُّ زانَ حسنَ وُجوه كان للدرِّ حسنُ وَجْهِك زَيْنا»

هـ - التعزية

إذا ذهبت مذهب مَنْ يقول: إنَّ معدِن المدح الثناءُ، ومعدن الرثاءِ الوفاءُ، فأنت تُسيغ زعمَ مَنْ يزعم أن التهنئة أختُ المدح في الدعاء للمهنَّأ بالخير والبركة، وأنَّ التعزيةَ أخت الرثاء في الدعوة للفاقد بالصبر والأجر، وللفقيد بأن يفوز بالجنة، وينجو من النار.

ذكرنا في كتابنا «النثرُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة» أنَّ للتعزية أصولاً جاهليةً، خَلَتْ من نفحة الإيمان بالآخرة، وبرد اليقين، ومن التَّوْق إلى رحمة الله، والشوق إلى الجنة، وطغَى عليها الشعور القاتم بقسوة الفناء،

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٥/ ١٨٤.
(٢) العقد الفريد١/ ٣١٩.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٥/ ٢٧١، وفي العقد الفريد ٢/ ١٣٤ أن الذي هنأ عمر هو خالد بن عبد الله القسري.

والضياع في عالم العدم، وبالتسليم العاجز للقضاء القاهر، والبرهان على أن الخلود مستحيلٌ، لأن الأصول التي ينتمي إليها الأحياءُ ماتت، والمتفرِّع من الميْتِ مَيِّتٌ لا مَحالة. وذكرنا كذلك أن الإسلام أنكر العدمَ المطلقَ، والفناء الذي لا نشورَ بعده، ومنَحَ العرب والمسلمين تصوُّراً جديداً للكون وللحياة، قرَّر فيه أن الحياةَ الدنيا مَحَطةٌ يحطُّ فيها المسلمُ لكي يرحلَ بعدها من دار الفناء إلى دار البقاء. وأنَّ عمله في دنياه يقرِّر مصيرَه في أخراه، وهذا المفهومُ أخرجَ المسلم من ضياع العدم إلى وضوح الرؤية، وتكامل التصوّر، وبرد اليقين، ونعمة الأمل بالخلود.

وعن هذا التصوُّرِ الكلّي صدرت المعاني الجزئيةُ التي صِيغت منها نصوصُ التعزية في عصر النبوَّة والخلافة الراشدة. ثم انتقلتْ بعدما تأصَّلَتْ إلى العصر الأموي، فزادها تقادمُ العهد، وتعاور الألسنة، رسوخاً في الفكر وإشراقاً في النفس، وأصبحت كأنها أذكارٌ يُتَعبَّدُ بها، وأدعيةٌ تطيرُ أجنحتُها بالأرواح من الأرض إلى السماء.

عزَّى يزيدُ بن معاوية عبدَ الله بنَ عباس بالحسن بن عليّ ﷺ، فقال[1]:

«رحمَ الله أبا محمد أوسعَ الرحمة وأفسحَها، وعظَّم أجرَكَ، وأحسنَ جزاءَك، وعوَّضَك من مُصابك ما هو خيرٌ لك ثواباً، وخيرٌ عُقبى».

وأوجعُ ما يوجعُ الإنسانَ من نصوص التعزية الأموية تلك التي قيلت فيمن فُجع بهم أهلُ البيت من صفوة البشر. فقد تعاقبت مصارعُهم تعاقباً مروِّعاً، تكاد القلوبُ تتفطَّر من أحداثه الدامية، حتى أيقن كلُّ حيّ من الأسرة النبوية أنه هالكٌ، فراح الأحياء الأموات منهم يعزُّون غيرَهم بأنفسهم قبل أن يرحلوا، كما رثى مالكُ بنُ الريب نفسَه قبل أن يموت.

روى الطبري[2] أن زينب أختَ الحسين بن عليّ ﷺ لَطَمتْ وجهها عندما سمعت مقالةَ أخيها وعزمَه على الخروج، فقال الحسين يعزِّيها بنفسه:

«يا أُخيَّةُ، اتَّقي الله، وتعزَّيْ بعزاء الله، واعلمي أنَّ أهل الأرض يموتون، وأنَّ أهل السماء لايبقون، وأن كل شيء هالكٌ إلَّا وجهَ الله الذي خلَق الأرضَ

(١) مختصر تاريخ دمشق٢٨/ ٢٣، والبداية والنهاية٨/ ٢٢٨.
(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٣٤٠.

بقدرته، ويبعث الخلقَ، فيعودون، وهو فردٌ وحدَه، أبي خيرٌ مني، وأمّي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ مني. ولي ولهم ولكلِّ مسلم برسول الله أُسْوة».

وإذا كان عبد الله بن سبرة قد رثى يده التي قطعت ثلاث من أصابعها، وهو يقطع عُنق الأَطْربون - قائد الروم - في غزوة غزاها، فإن عيسى بن طلحةَ بنَ عبيد الله أحزنه أن تُقْطع رِجْلُ عروة بن الزبير فعزَّاه، إذْ وجدَ في علمه وعقله عوضاً مِن قدمه أو رجله، فعزَّاه بقوله[١]:

«إنا والله - يا أبا عبد الله - ماكنا نُعِدُّك للصراع ولا للسباق. وقد أبقى الله لنا منك ما كُنّا نحتاجُ إليه: عقلَكَ وفضلَكَ وعلمك».

قد يكون في هذا الضرب من التعزية بعضُ الجدة، غير أن عراقة التعزية الجادَّة مقدَّمةٌ على طرافة التعزية الجديدة. وفي كتب التاريخ والأدب والتراجم نصوصٌ كثيرة، تضمَّنت الروحَ الإسلامية الجادَّة التي تخلع على الموت شرفاً وجلالاً ومهابة تمحو ما يصحبُه من حزن بما يعقبُه من خلود، وتشيِّع الموتى، ولا سيّما القادة والشهداء بما يليق بهم من تكريم، وتستلهم معاني التكريم من الكتاب والسنة. روى أبو الفرج الأصفهاني أن الشعراءَ دخلوا على هند بنتِ المهلب يعزّونها، وقد قُتِل أخوها المفضَّلُ بن المهلب، فقالت تعزّي نفسَها[٢]:

«كم من ميتة أشرف من حياةٍ حيّ، وليست المصيبةُ في قتل مَنْ استشهد ذابّاً عن دينه، مُطيعاً لربِّه، وإنَّما المصيبةُ فيمن قلَّتْ بصيرتُه، وخَمَل ذكرُه بعد موته. وأرجو ألَّا يكون المفضَّلُ عند الله خاملاً».

وعزّى الوليدُ بن يزيد هشامَ بنَ عبد الملك حينما توفي أخوه مَسْلَمةُ - وكان مسلمة أعظم القادة الأمويّين - فقال[٣]:

«يا أميرَ المؤمنين، إن عُقبى من بقي لحوقُ من مضى. وقد أقفَر بعد مسلمة الصيدُ والمَرْمَى، واختلَّ الثغرُ، فوهى. وعلى أثرِ مَنْ سَلَف يمضي من خَلَف. ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٧]».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٠/ ٧٥.

(٢) الأغاني ١٤/ ٢٧٦، ذاباً: مدافعاً.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٦٩، اختل: اضطرب. الثغر: مكان وجود الجند في مواجهة العدو، وهى: ضعف.

وقد تنحسر الروح الدينية عن بعض النصوص، فيطغى العقل على النص، وحينئذ تفتر العاطفة، ويحل المنطق البارد محل الإيمان المتوهج. حينما توفي أيوب بن سليمان بن عبد الملك دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على سليمان يعزيه، فقال[١]:

«إنه مَنْ طال عمره، فَقَدَ أحِبَّته. ومَنْ قصر عمرُه كانتْ مصيبتُه في نفسه. فلو لم يكنْ في ميزانك لكنتَ في ميزانه».

و- التأبين

في كتابنا «النثرُ في عصر النبوة والخلافة الراشدة» كنا قد فصَّلْنا القولَ في معاني التعزية والتأبين. وأبو البقاء الكفويّ أوجز معاني التأبين ببضع كلمات، فقال[٢]: «التأبينُ: الثناء على الشخص بعد موته، واقتفاءُ أثر الشيء كالتأبُّن، وترقُّب الشيء أيضاً». ولا يعنينا هنا غيرُ الثناء على الميت. وتفسيرُه على هذا النحو يجعلُه شقيقَ المدح في المعنى، والتعزيةِ في العاطفة، لأنه يستعيرُ من المدح المناقبَ والمحاسن، ويُطري بها الفقيد، ومن التعزية الحزنَ والأسى، ويشيِّعُ بهما موكبه. وما في التأبين من حزن وثناء يقرِّبه من الرثاء، حتى يغدوَ الغرضان غرضاً واحداً.

وأجْوَدُ ما في نصوص التأبين المتحدِّرة إلينا من العصر الأمويّ طابعُها الإسلاميُّ، وروحها المؤمنة، والتزامُها ما أمر به النبيُّ ﷺ إذْ قال[٣]: «إذا حضرتم المريضَ أو الميتَ فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»، وإذْ قال أيضاً[٤]: «اذكروا محاسنَ موتاكم، وكفُّوا عن مساويهم».

ومتى صَدَع المؤبِّنُ بما أمَرَه به رسول الله ﷺ، فذكر الخير والمحاسنَ، وطوى الشرَّ والمساوئَ، تحول المأتمُ إلى محاضرة اجتماعية، تُدرَّسُ فيها مكارمُ الأخلاق، ويُنشر الذكر العطر، ويُشادُ بالمناقب، حينئذٍ يتضاءل الحُزن، وتَرْقَأُ الدموع، وتسكت النوادب، وتُسخَّرُ أشجانُ الموتِ للرُّقيِّ بالحياة.

---

(١) العقد الفريد٣/ ٣٠، يعزيه في ابنه أيوب.
(٢) الكليات ٢/ ١٠٣.
(٣) الأذكار/ ٢٠٢.
(٤) المصدر السابق ٢١٧.

وممَّا يزيد معانيَ التأبين سُموّاً، وعواطفه تأثيراً أن يكون المؤبَّنُ على حظٍّ من النُّبل والشرف والورع عظيم، كأنْ يكون أحد الصحابة أو التابعين فكيف لو كان سِبْطَ رسول الله ﷺ وأكبر أبناء عليّ كرَّم الله وجهه؟ حينئذٍ لا يُعْنِتُ المؤبِّن نفسَه في ذكر المحاسن وطيِّ المساوئ، لأنه يتكلَّم على شخصية تمحَّضت للخير، وخلصت للفضل. فما عليه أكثر من أن يسردَ أخبار الفقيد، ويرويَ سيرته، فإذا هو يرسم المثلَ الأعلى والأسوةَ الحسنة لمن يطمح إلى محاكاة العظماء، والتأسِّي بأهل الفضل. قال ابن عساكر[١]:

وقف الحسينُ بن عليّ عند قبر أخيه الحَسنِ يوم مات، وقال:

«رحمك الله، أبا محمد، إن كنت لتناصر الحقَّ مَظانَّه، وتُؤثر الله عند مداحضِ الباطل في مواطن التقيَّة بحسن الرويّة، وتستشفُّ جليلَ معاظم الدنيا بعينٍ لها حاقرة، وتفيضُ عليها يداً طاهرة، وتردعُ بادرة أعدائك بأيسر المؤنة عليك. وأنت ابنُ سلالة النبوة، ورضيعُ لِبانِ الحكمة، وإلى رَوْحٍ ورَيْحان وجنَّةٍ نعيم. أعظمَ لنا ولكم الأجرَ عليه، ووهبَ لنا ولكم السلوةَ، وحسْنَ الاتّساء عليه».

والأمويون، مع مناوأتهم أهلَ البيت، لم يعدموا قادةً عظماء، وأئمةً أتقياءَ، قاربوا في الزهد والورع، والنبل والفضل ما كاد الهاشميّون يتفرَّدون به. ومنهم عمر بن عبد العزيز الذي أملت فضائله على مسلمة بن عبد الملك تأبيناً أوفى على الغاية في السّمو، كأن المؤبِّن استلهم أفكاره من حياة المؤبَّن الحقيقية بلا انتقاء ولا مجاملة، غير قاصد إلى الثناء والإطراء.

قال أبو الفرج الأصفهاني[٢]: لَمَّا مات عمر بن عبد العزيز وقف مسلمةُ بنُ عبد الملك عليه بعد أن أُدرج في كفنِه، فقال:

«رحمَك الله، يا أمير المؤمنين، فقد أورثتَ صالحينا بك اقتداءً وهدىً، وملأتَ قلوبنا بمواعظك وذكرك خَشْيةً وتقىً، وأثَّلْتَ لنا بفضلك شرفاً وفخراً، وأبقيتَ في الصالحين بعدَكَ ذِكراً».

ومن يقرأ نصوص التأبين على ضوء الأحاديث النبوية، ما ذكرنا منها،

(١) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٤٦، مداحض: مزالق، الاتساء: التعزي والصبر.
(٢) الأغاني ٩/ ٢٦٥، أثلت: أصّلت أو ثبّت.

وما لم نذكر، يدرك أن لنشر المناقب وطي المثالب غاية بعيدة المدى، نبيلة المقصد، ويدرك كذلك أن النبي ﷺ جعل الموت- وهو أشق ما يشق على الأحياء- سانحة يهتبلونها لكي يتسامحوا ويتصالحوا، ولكي يأتلفوا إذا كانوا قد اختلفوا. إن في تزكية الحيّ للميت في التأبين ضَرْباً من المسامحة، والمسامحةُ تفضي إلى المصالحة. وعن هذه العاطفة صَدَر عبدُ الله بن الزبير في تأبينه معاويةَ بن أبي سفيان على الرغم ممَّا كان بينهما من تنافس.

ذكر أبو الفرج الأصفهاني[١] أنَّ عبدَ الله بن الزبير أَبَّنَ معاوية بن أبي سفيان حينما بلغه نعيُه، فقال:

«رحم الله معاوية، إن كنا لنخدعه فيتخادع لنا. وما ابن أنثى بأكرم منه، وإن كنا لنعرفه يتفارق لنا، وما الليث المحرب بأجرأ منه. كان والله كما قال بطحاء العذري:

رَكوب المنابر وثَّابُها مِعَنٌّ بخطبته يجهرُ
تريع إليه عيونُ الكلام إذا حصر الهَذِرُ المِهْمَرُ[٢]

كان والله كما قالت رقيقة:

ألا ابكيه ألا ابكيهِ ألا كلُّ الفتى فيه

والله لَوُدِّي أنه بقي بقاء أبي قبيس، لا يُتَخَوَّنُ له عقل، ولا تنقص له قوة».

٣- سمات هذه الأغراض

لا يُخطئُ من يرى أن هذه الأغراض الاجتماعية الصغيرة ليست عند التحقيق إلّا أبعاضاً من الأجناس الأدبية التي درسناها قبلُ: فالتحذيرُ يمكن إلحاقه بالخطب السياسية. والشكوى قد تُدْرَج في خطب الوفود، والاعتذارُ فيه من ملامح المشكلات السياسية والروابط الاجتماعية ما يجعله تجلِّياً من تجليات النثر السياسي أو الاجتماعي خطباً ورسائل. والتهنئة والتعزية والتأبين تُلامس الحكمةَ مرة، والموعظة أخرى.

---

(١) الأغاني ١٧/ ٢١٢، يتفارق: يتظاهر بالخوف، المحرب: شديد الحرب، الشجاع. وروى ابن قتيبة الخبر باختلاف في عيون الأخبار١/ ١١.

(٢) المكثار.

فإفراد هذه الأغراض الصغرى من الأجناس الكبرى كاقتطاف الغصن الأملود من الشجرة الراسخة، وفي الغصن كلُّ ما في الشجرة من سمات، فعلام يفصل الولد عن أبيه، وما الغرضُ من هذا الفصل المتكلَّف؟

الغرض من الفصل مواكبة التطور الذي بدأت ملامحه تتراءى على استحياء في العصر الأموي، ومن هذه الملامح الانتقالُ من التعميم إلى التخصيص، والاستجابةُ لهذا التطور تضعُ يد القارئ على أغراض آخذة بالانفصال والاستقلال، وفصلها يزيدها وضوحاً، ويضيفُ إلى ما ورثت من سمات الأغراض والأجناس الكبرى سماتٍ تخصُّها. فما أبرزُ هذه السمات؟

أ- تأثر المعاني بالتصور الإسلامي

لا تخالفُ الحقيقة إذا ذهبت إلى أن هذه الأغراض الصغرى جاهليةُ الجذور، وتخالفُها إذا زعمت أن جذورها بقيت تستقي نسغ الحياة من أفكار الجاهليين. إنَّ التصور الإسلامي للحياة والموت، ولما بعد الحياة والموت أجرى في أعراق هذه الأغراض عامَّة، وفي التعزية والتأبين خاصَّةً، ما لم يكن للجاهليين به عهد.

جمَّل الإسلامُ عالم الشهادة بعالم الغيب، وحدَّث المسلمين عمّا في عالم الغيب من نشور يُخرجهم من القبور، وحشر وحساب، وثواب وعقاب، وجنة ونار. وبيَّن لهم أن البشر من ملك وسوقة وأعلام وأغفال خارجون من هذه الدنيا الفانية، وأنهم مهما يتوارثوها، تاركوها آخرَ الأمر لخالقها، والخالقُ أحقُّ من سواه بأن يرث ما خلق. تجلّى هذا المعنى فيما أبَّنَ به عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق عبدَ الله بن جعفر، إذْ قال[1]: «لا إله إلا الله الذي يرث الأرضَ ومن عليها وإليه ترجعون. ما كان أحلى العيش بك يا بن جعفر! وما أسمج ما أصبح بعدك! والله لو كانت عيني دامعةً على أحد لدمعتْ عليك». فمتى وقع في سمعك السطر الأول من كلام الأشدق طار ذهنك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ١٩/ ٤٠].

ولا تُقدِّرُ المعانيَ الإسلامية حقَّ قدرها مالم تقرنها بالمعاني الجاهلية. فمتى قرنت البعثَ الإسلاميَّ بالعدم الجاهلي أشرق الأملُ بين عينيك، وطاف

(١) الأغاني ١٢/ ٢٢٢، ما أسمج: ما أقبح.

بالحياة والموت طائفٌ رحماني، ماكان يطوف مثلُه بعقول الملاحدة من الجاهليين لأن الموتَ بلا نشور يأسٌ قاتل، يجعل الحياةَ أُضْلولةً مرذولة، والموتَ خاتمةً مرعبة، والتعزيةَ لعنةً مُخزية، والتأبينَ إمعاناً في التحزين.

على هذا النحو أخرج عمرُو بن عثمان القارئَ من صحراء الضياع إلى جنة الخلد بما أبَّنَ به عبدَ الله بن جعفر. لقد أطرى الفقيدَ ببيت من شعر الأعشى أولُه حبٌّ ووفاء، وآخرُه عَدَم وفناء،وحينما أدرك أنه أيأَس ولم يبشِّرْ، قبَسَ من القرآن الكريم ما بشَّر به الله عزَّ وجلَّ عيسى عليه السلام ليسرّي بالبشرى عن قوم الفقيد.

ذكر أبو الفرج الأصفهاني أن عمرو بن عثمان وقف على قبر عبد الله بن جعفر لمَّا فُرِغ من دفنه، فقال[1]:

«رحمَك الله يا بنَ جعفر، إن كنت لرحمِك لواصلاً، ولأهل الشرِّ لَمُبغِضاً، ولأهل الريبة لقالياً. ولقد كنت فيما بيني وبينك كما قال الأعشى:

رعيتَ الذي قد كانَ بيني وبينكم من الودِّ حتى غيَّبَتْك المقابرُ

فرحمك الله يومَ وُلدت، ويومَ كنتَ رجلاً، ويوم متَّ، ويوم تُبعَثُ حيّاً. والله لئن كانت هاشم أصيبتْ بك لقد عمَّ قريشاً كلَّها هُلْكُك. فما أظنُّ أن يُرَى بعدك مِثلُك».

ب- سمو المشاعر

لم يرق الإسلام بالفكر العربيِّ وحده، بل شفعَ الرقيَّ الفكريَّ بالسموِّ النفسي، فَفَثأ وَقْدة العصبية القبلية، وكبحَ جَمحة الأثرة الفردية، وحثَّ على تعارف الشعوب والقبائل، وأحلَّ التعاون والتسامح محلّ التباغض والتنافر، وجعل التآخيَ بين المهاجرين والأنصار ركناً من أركان الوحدة الاجتماعية.

وفي العصر الأموي وسِعَتْ هذه الأغراضُ الصغيرة آفاق هذه المشاعر الكبيرة، وكانت- ولا سيَّما التعزيةِ والتأبينِ- أقدرَ من الأجناس التقليدية على توحيد الأُمَّة، وتخليصها من الإحن القديمة، فيزيدُ بنُ معاوية عزَّى عبدَ الله بن عبّاس حينما توفي الحسن ﷺ، وعبدُ الله بن الزبير أبَّن معاوية بن أبي سفيان، ومعاوية اعتذر لصغار الجند، وهشامُ بن عبد الملك أشكى أعرابيّاً نكرة من

(١) الأغاني١٢/ ٢٢١.

أغمار الناس على حاكم من رجال الدولة، فعزَله، ولم يعنفْ بالأعرابي، بل أشفق عليه إشفاق الأم الرؤوم حتى «ترادفت عبراته في صدره».

وأدلُّ ما يدلُّك على هذا السموّ تواضعُ الخلفاء للجلساء، وتحسّسهم مواجدهم، حتى إن الخليفة كان يسترضي مَنْ يُغاضبه، ويؤرِّقُه أن يجد الأسى على وجه مَنْ يُجافيه، فيسبقُه إلى المصالحة، ويُؤْنسه بالسؤال، والإيناس يغمرُ المسؤول بالطمأنينة، فيقابلُ نُبْلَ السؤال بنبل الجواب، وحينئذٍ تحارُ أيُّ الرجلين أكرمُ خُلُقاً، وأعظمُ شهامة، وأرقى نفساً، وأنقى صدراً.

قال ابنُ عبد ربّه في الحديث عن الاعتذار والاستعطاف[1]: «وجِدَ عبد الملك بن مروان على رجل، فجفاه، واطَّرَحه. ثم دعا به ليسأله عن شيءٍ فرآه شاحباً ناحلاً فقال له: مُذْ متى اعتلَلتَ؟ فقال: ما مَسَّني سَقَمٌ. ولكني جفوتُ نفسي، إذ جفاني الأمير، وآليتُ ألَّا أَرْضى عنها حتى يرضى عني أميرُ المؤمنين».

جـ- الزهد في التصوير

قد يذهبُ بك الظنُّ- وفي ظنِّك حظ من الصواب- أنَّ هذه الأغراضَ الصُّغرى فكريةٌ خالصة، تمحضتْ نصوصُها للإصلاح. والسبيلُ إلى الإصلاح وضوحُ الفكرة لا جمالُ الصورة. وحَسبُ من يحذّرُ ويعتذرُ ويشكو ويُعزِّي أن يصوغَ المعانيَ بأوجز المباني لكي يبلغَ غايته.

إن النظر فيما سقنا بين يديك من نصوصٍ وفيما لم نسق يفضي بالناظر إلى حكم قريب من حكمك، إلّا أن تغليب الإقناع بالفكرة على الإمتاع بالصورة لم يزهد كل المحذرين والمعتذرين والمهنئين والمعزين في تجميل ما يقولون بيسير من التشبيه، وشذرات من الكناية، ولمسات من الاستعارة، لأن في التصوير عوناً على التوضيح.

أُرتجَ على عبد الملك بن مروان وهو يخطبُ، فاعتذر للناس بقوله[2]: «إن اللسانَ بضعةٌ من الإنسان. وإنا لا نسكتُ حَصَراً، ولا ننطقُ هذراً. ونحن أمراءُ الكلام، فينا وشَجَتْ عروقُه، وعلينا تهدَّلَتْ أغصانُه....».

---

(١) العقد الفريد ٢/ ١٥٦، اطّرحه: أبعده وجفاه.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٥/ ٢٢٧، وشجت: تداخلت وتشابكت.

إن في اعتذار عبد الملك صوراً توضّح وتجمّل، وتُقنع وتمتع. فالبلاغة لها دولة، والأمويون حكّامُها، وأيكةٌ، وهم الناعمون بظلالها، فسكوته بُهْرٌ عارضٌ، لا عيٌّ دائم.

ونحا الشعبي نحو عبد الملك فيما اعتذر به للحجّاج بعدما خرج مع ابن الأشعث على بني أمية، فصوَّر خروجه وضلاله وإخفاقه آخر الأمر تصويراً معبّراً، إذْ جعل اشتراكه في هذه الفتنة الرعناء كالسير في الدروب الوعرة، والسهوب القاحلة وجعل الرعبَ الذي غشيه وأَرَّقه كُحْلاً في الجفون، وجُلًّا على الظهر.

«أصلح الله الأمير، أحْزَنَ بنا المنزلُ، وأجدب الجنابُ، وضاق المسلك، واكتحلنا السهر، واستحلَسْنا الخوفَ»(١).

د- ضؤولة الزينة اللفظية

اقترنت ضؤولةُ الصور البيانية بضؤولة المحسنات، وطَغَى على هذه الأغراض أسلوبُ الترسُّل العفويّ، إمَّا لأن الزينةَ البديعية كانت في طَوْر النشوء لا الانتشار، وإمَّا لأن جواهر المعاني شَغَلَت المترسِّلين عن ظواهر الألفاظ، فألحَّ المعتذرون على ترجمة النَّدم والتوبة، والمعزُّون على البوح بالألم والحزن، فكان حظُّ هذه الأغراض الصغرى من النفس المرهفة الحسِّ، فوق حظِّها من الفنّ الحريص على التنميق.

حينما قُتل الحسينُ بن علي رضي الله عنهما، وأثار مصرعُه المروِّعُ قلوبَ المسلمين حاول الوليدُ بن عتبة أن يأسوَ ما جرح يزيدُ باعتذار، قد يصوِّر عمقَ الفاجعة، لكنه لا يمحو الوِزْرَ بالعُذْر، فقال(٢):

«إن هذا - يعني الحسين - عفا الله عنا وعنه، حِرْنا بين أن يقتلنا ظالماً، أو نقتله معذورين في قتله. فصِرنا إلى التي كرهنا مُضطرين إليها، غير مختارين لها. وتالله، لَوَدِدنا أنا اشترينا له العافية فيه. ولو أمكن ذلك بإغلاء الثمن. وإن عجل قومٌ بملامنا ليصيرُنَّ إلى عذر منا».

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٠/ ٢٤٢، أحزن بنا المنزل: صار ذا غلظة وخشونة، أو أنهم نزلوا ما غلظ من الأرض، استحلسنا: ركبنا وتراكم علينا وكثر.

(٢) مختصر تاريخ دمشق٢٦/ ٣٣٤.

وإلى جانب الكثرة من النصوص المرسلة تجد قلة من النصوص المصنوعة. ومظاهر الصنعة فيها غير متكلفة، ولا مفروضة على المعاني، وإنما هي خادمة لها، منسابة في ركابها.

من هذه النصوص شكوى رفعها أعرابيٌّ إلى عبد الملك بن مروان، ذكر فيها أن عاملاً من عماله شوَّه وجهَ الدولة الأموية بسوء الإدارة، والعُتُوِّ على الرعيَّة، والاستخفاف بالخلافة، والظلم والغشم، حتى أفقر العبادَ، فكادوا يبارحون مواطنهم هرباً من طغيانه. فقال[1]:

«إن فلاناً ممَّن رفعتَ خسيسته، وأثبتَّ ركنه، وأعليتَ ذكره، وأمرته بنشر محاسنِك فطواها، وإظهارِ مكارمك فأخفاها، وعمد إلى أمورك في رعيتك فتعدَّاها، استخفافاً بالحرمة، وقلة شكر النعمة، قد أخرب البلادَ، وأضاع الأجنادَ، وأظهر الفساد، وأخرج الناس من سَعَةِ العدل إلى ضيق الجَوْر، حتى باعوا الطارف والتلاد، وهمُّوا ببيع النسل والأولاد».

(١) المصدر السابق ٢٩/ ٢٨٩ خسيسته: دناءته وضعته.

obeikandl.com